الكرسي الرسولي

عظة قداسة البابا لاوُن الرّابع عشر

في القدّاس الإلهيّ

في الذّكرى المئويّة الرّابعة لتدشين بازيليكا القدّيس بطرس

18 تشرين الثّاني/نوفمبر 2026

بازيليكا القدّيس بطرس

[Multimedia]

أيّها الإخوة والأخوات الأعزّاء،

العيد الذي يجمعنا اليوم في الفرح يطرح على كلّ واحد منّا سؤالًا: ماذا شعرنا حين دخلنا بازيليكا القدّيس بطرس؟ زيارة هذا الصّرح المهيب تثير فينا دائمًا مشاعر عميقة: إذ يستولي علينا الإعجاب أمام قداسة الإيمان، وقوّة التّاريخ، وجمال الفنّ. مع ذلك، فإنّ كلّ هذا يقوم على قبر متواضع: قبر صيّاد الجليل، سمعان بن يونا. كيف صار هذا المدفن أحد أشهر المعالم في كلّ العالم، وفي قلب الكاثوليكيّة؟ يجيبنا على هذا السّؤال الإنجيل الذي أصغينا إليه (متّى 16، 13-19)، إذ يروي لنا إيمان رجل صار خليقة جديدة بإرادة يسوع، معلّمه وربّه. هذه الرّواية تُلهب قلوبنا اليوم في الاحتفال الإفخارستيّ الذي نقيمه في مناسبة الذّكرى المئويّة الرّابعة لتكريس بازيليكا القدّيس بطرس في الفاتيكان، الذي جرى في 18 تشرين الثّاني/نوفمبر 1626 على يد البابا أوربانوس الثّامن، الذي يرقد جثمانه هنا بالتّحديد، إلى جانب كرسيّ الرّسول.

هذه الصّلاة تعبر القرون، وتكشف لنا بوضوح معنى هذه التّحفة الفنّيّة وقيمتها، وهي التي تعانقنا اليوم، وقد حرص الكرسيّ الرّسوليّ على صونها بعناية خاصّة، ولا سيّما بأعمال مشغل القدّيس بطرس. أغتنم هذه المناسبة لأعرب عن خالص شكري لصاحب النّيافة الكاردينال ماورو غامبيتي، على الخدمة التي قام بها بكونه رئيس كهنة البازيليكا ورئيس مشغل القدّيس بطرس، ولأرحّب بصاحب السّيادة المطران فيتوريو فيولا.

كلّ هذا الصّرح، في الحقيقة، وبكلّ عنصر من عناصره، يهدف إلى حقيقة واحدة: الإيمان. إيمان بطرس، والإيمان الكاثوليكيّ، وإيماننا نحن. لذلك، صدى السّؤال الذي وجّهه المسيح إلى تلاميذه يتردّد في كلّ أرجاء البازيليكا: "ومَن أنا في قَولِكم أنتُم؟" (متّى 16، 15). وإذ نصغي إلى كلام يسوع، نحن الذين قدمنا من أمم كثيرة مختلفة، القدّيس بطرس يأخذنا بيدنا، لكي نعترف معًا بالحقيقة التي تخلّصنا: "أنتَ المسيحُ ابنُ اللهِ الحَيّ" (متّى 16، 16). هذا هو اعتراف بطرس بالإيمان، أي الحقيقة التي شهد لها مع شهداء روما. وهو اعتراف أثمر في أرض تلّة الفاتيكان، لكي

اليوم، أيّها الأعزّاء، نحن هذه الثّمار، نحن الحجارة الحيّة، وهيكل الرّوح القدس، المشيّد على الأساس الذي هو المسيح. على مرّ القرون، تجلّت هذه الثّمرة في التّعاقب الرّسوليّ المتواصل، وفي تقليد الكنيسة الحيّ، ويسوع نفسه هو مبدؤها ومقياسها. لذلك، نُقش كلام الرّبّ يسوع، باللغتين اللاتينيّة واليونانيّة، على امتداد كلّ إفريز البازيليكا العلوي: "أنتَ صَخرٌ وعلى الصّخر هذا سَأبني كَنيستي" (متّى 16، 18). وعندما تأمّل القدّيس لاوُن الكبير في هذا الكلام، هتف قائلًا: "كما أنّ ما آمن به بطرس في المسيح يبقى ثابتًا، كذلك يبقى ثابتًا ما أقامه المسيح في شخص بطرس" (في *عيد ميلاد الرّبّ*، العظة الثّالثة)، أي خدمة الكنيسة كلّها، ومن أجل خلاص العالم. إذًا، ليس الأمر مجرّد حدث من الماضي، بل مثل سمعان من الجليل، كذلك كلّ واحد منّا، مدعوّ إلى أن يكتشف رسالته الخاصّة بالحوار مع يسوع.

في سياق هذا الحوار نفسه، وجّه الرّبّ يسوع إلى رسوله السّؤال الآتي: "أَتُحِبُّني؟" (يوحنّا 21، 17). أَتُحِبُّني؟ إنّه سؤال ينبض في قلب كلّ حَبْرٍ أعظم، كما أقرّ بذلك أسلافي، لأنّ "الرّسالة التي تسلّمها بطرس من الرّبّ القائم من بين الأموات، لكي يعتني بخرافه وحملانه، ستظلّ دائمًا مرتبطة بمحبّة مجانيّة، بمحبّة صداقة" (فرنسيس، الإرشاد الرّسوليّ ما بعد السّينودس، *المسيح يحيا*، 250). بالنّسبة إلى سمعان بطرس، كما بالنّسبة إلى كلّ تلميذ من تلاميذ يسوع، فإنّ اختبار الإيمان لا ينفصل عن الصّداقة معه، وهو الذي يُعترف به إلهًا حقًّا بإنسانيته بالتّحديد. فالاسم الجديد الذي ناله سمعان يشهد على أنّ "الحياة، بمعناها الحقيقيّ، لا يملكها الإنسان في ذاته بمفرده، ولا تنبع منه وحده. بل هي علاقة. والحياة، في كليّتها، هي علاقة مع ذاك الذي هو ينبوع الحياة" (بندكتس السّادس عشر، رسالة بابويّة عامّة، *بالرّجاء مخلّصون*، 27).

في هذه العلاقة مع يسوع، القائمة على الإصغاء والثّقة، وعلى السّقوط والنّهوض من جديد، سأل بطرس: "يا رَبّ، إلى مَن نَذهَب وكَلامُ الحَياةِ الأَبَدِيّةِ عِندَك؟" (يوحنّا 6، 68). هذا هو الإيمان الذي نحن شركاء فيه: فالاعتراف بيسوع ربًّا ومعلّمًا يعني أن نكتشف حقيقة ذاتنا، لأنّ "المسيح يعرف ما في داخل الإنسان: هو وحده يعرف ذلك!" (القدّيس يوحنّا بولس الثّاني، *العظة في بدء الخدمة البطرسيّة رسميًّا*، 22 تشرين الأوّل/أكتوبر 1978). في أعماق الإنسان، وفي هيكلنا الدّاخليّ، ينطق يسوع بكلمة الخلاص، مقرونةً باسم كلّ واحد منّا. والبازيليكا التي تستقبلنا اليوم هي، بطريقة ما، علامة على الحيّز المقدّس للضمير، حيث يهتزّ الإيمان، وينضج في الصّداقة مع الرّبّ يسوع وفي خدمة الكنيسة، حتّى الاستشهاد.

لهذا السّبب، فإنّ قبر القدّيس بطرس هو بالنّسبة إلينا جميعًا مكان للإيمان وذكرى للفداء، منذ عهد المدافن الرّومانيّة القديمة، وعلى امتداد كلّ العصور اللاحقة. في الواقع، أمر الإمبراطور قسطنطين ببناء بازيليكا أولى فوق قبر الرّسول. وفي ذلك الهيكل كرّس البابا إكليمنضس الثّامن المذبح الذي لا زلنا حتّى اليوم نحتفل عليه بالأسرار الإلهيّة. وفي مطلع القرن السّادس عشر، بات الصّرح القسطنطينيّ بحاجة إلى تجديد شامل. عندئذٍ، بدأ يتبلور مشروع شاركت فيه أهمّ العقول في ذلك العصر، من رجال ذوي عبقريّة وفنانين، من بينهم برامانتي ورافائيلي وميكيلانجيلو. إلى جانب هؤلاء، نتذكّر اليوم جميع الذين ساهموا في بناء هذا الهيكل، فمجّدوا الله بمواهبهم وجهودهم وخيراتهم: فالبيت الذي نسكنه هو حقًّا عمل كنسيّ! هكذا، أُقيم صرح البازيليكا الجديد على الأساس نفسه، فالتّاريخ المعماريّ لبازيليكا القدّيس بطرس يعكس تاريخ الإيمان الذي يُحتفل به فيها، أي تاريخ الكنيسة بكونها كيانًا حيًّا، وجسد المسيح. ومن العلامات المميّزة لذلك المجامع المسكونيّة التي انعقدت هنا: المجمع الفاتيكانيّ الأوّل والمجمع الفاتيكانيّ الثّاني، اللذان يسلّمان إلينا معًا كلام الإيمان، لكي نعلنه في جميع أنحاء العالم.

في قلب هذه الرّسالة وأساسها، يظلّ هناك دائمًا حجر الزّاوية الوحيد: المسيح المصلوب والقائم من بين الأموات. هو الحجر الذي رفضه أقوياء هذا العالم، والذي يبقى بالنّسبة إلى الشّعوب حجرًا "مُختارًا كريمًا، مَن اتّكَلَ علَيه لا يُخْزى" (1 بطرس 2، 6؛ أشعيا 28، 16). بهذا المعنى، يُظهر اسم بطرس الجديد ذَوبَان الرّسول في المسيح، واتّحاده به في الحياة حتّى الصّليب. تكريس البازيليكا الذي نحيي ذكراه اليوم، يختم هذا التّطابق بختمه، فهو عمل احتفالي يعنينا جميعًا، لأنّ حياة يسوع تسكن هذا الهيكل دائمًا، ولا سيّما في الحدث الأهمّ الذي يجري فيه، أي الاحتفال الإفخارستيّ.

هذا السّرّ هو أسمى تحفة يمكن للإنسان أن يتأمّل فيها، سواء في بازيليكا القدّيس بطرس أم في أصغر كنيسة في العالم. ففي الإفخارستيّا، يسوع يكون معاصرًا لنا دائمًا، فهو حقًّا عمانوئيل، وربّ التّاريخ، الذي يسكن "بيتَ صَلاةٍ

هذه هي رسالتنا، وهي الرّسالة نفسها التي تسلّمها القدّيس بطرس على شواطئ بحيرة الجليل، والتي تُنقل إلى خلفائه حتّى نهاية الأزمنة، وفق ترتيب محدّد قوامه المحبّة: "اِرْعَ خِرافي" (يوحنّا 21، 17). ولكي تتمّ هذه الخدمة، قام الذين سبقونا في الإيمان بنقش الإنجيل في التّاريخ قبل أن ينقشوه في الرّخام. إنّ جمال هذا العمل الرّسوليّ يدعونا جميعًا إلى قداسة الحياة، لكي نواصل مسيرته بحماسة متجدّدة.

أيّها الأعزّاء، لننظر إلى الأبواب الواسعة، والأقواس، والشّرفات، والنّوافذ في البازيليكا، التي تطلّ على السّاحة وتشرّع أبوابها للعالم، حاملةً دعوة شاملة إلى الجميع: "تعالوا، وادخلوا، وتذوّقوا!". وبكلمة واحدة: "آمنوا!". آمنوا لا من أجل الحجارة الجميلة (راجع لوقا 21، 5)، التي لا يلبث الزّمن أن ينال منها ويفنيها، بل من أجل الإيمان الذي يظهر من خلالها، انعكاسًا وذكرى للصرح الرّوحيّ الذي هو جسد المسيح. هكذا، يجسّد اتّساع بازيليكا الفاتيكان دعوة دائمة إلى الاستقبال، لكي يجد أكبر عدد ممكن من النّاس مكانًا لهم في الكنيسة. من هذا المنطلق، يمكننا أن نفهم مقياس الأطوال الخاص بالكنائس الكبرى، الممتدّ على أرضيّة صحن الكنيسة الأوسط. فهو شاهد وذكرى للضيافة الكاثوليكيّة، التي تجد هنا في روما خلاصة تعبيرها، لتكون علامة رجاء للعالم أجمع.

****

2026 نايكيتافلا ةرضاح – ةظوفحم قوقحلا عيمج ©

Copyright © Dicastero per la Comunicazione - Libreria Editrice Vaticana